عمارة قحطان عوني .. المفهوم الخاص للمكان

(٢-٢)

د. خالد السلطاني*
معمار واكاديمي

قحطان عوني

يظل العقد الخمسيني في العراق الحافل بانجازات ابداعية متعددة يغوي الكثيرين لجهة رصد تلك الانجازات وتعقب صيروراتها وتلمس تطورها وتأثيراتها على مجمل النشاط الثقافي المحلي. ثمة بواعث كثيرة تواءمت زمنيا لتجعل من ذلك العقد حاضنا لاجناس ابداعية متنوعة، بضمنها العمارة طبعاً، العمارة التي اكتست "برداء" الحداثة واكتسبت شرعيتها منها، اي من الحداثة ذاتها. وعمارة قحطان عوني (١٩٢٦-١٩٧٢)، موضوع اهتمامنا الان، (والدراسة مكرسة لثمانينيته)، احدى تجليات تلك "الموجة الجديدة" التي وسمت ذلك "العقد الفريد" وجعلت منه فاصلة للتجديد وللقطيعة معاً، التجديد الذي يطمح لان تكون مؤشراته متصادية مع انشغالات ورشة الجهد المعماري العالمي ومعاييره. والقطيعة مع ممارسات باتت تعتبر شواهدها المبنية محض امثلة عادية ومحافظة وحتى تقليدية، لايمكنها باي حال من الاحوال ان تظل متعايشة بصفافة مع جملة المتغيرات التي طرأت على البلاد وعلى احتياجات مجتمع البلاد. ولئن ابانت الحداثة العراقية عن حضورها القوي والصريح في عقود لاحقة، فان العقد الخمسيني سيذكر، من دون ريب، بانه وقت ارهاصات ذلك الحضور ومنبع تلك الحداثة.

عندما تم اجتراح جدار المختبرات في مجمع الجامعة المستنصرية (١٩٦٣-١٩٦٦)، تفاجأ الوسط المعماري المحلي لنظارة اشكال الجدار الطابوقي " الاجري " وطريقة رصفه الداخلة والخارجة، والتي منحته شكلا فنيا معبرا مفعما بحضور مميز لحالات خاصية الظل والضوء التي تخلقها تناوبات رصف الاجر المختلفة. واعتبرت وقتها تلك المعالجة احدى " كشوفات " مكتب قحطان عوني المهمة والرئيسية، التي وجدت انعكاسا وتكرارا لها في كثير من التصاميم العائدة الى المعمار ذاته او في اعمال مقلديه. والامر هنا لا يرتبط في حذاقة ممارسة العمل المهني للجدار او يتعلق في مهارته الحرفية التقليدية ؛ بقدر ما تعني نتائج تلك الممارسة التي اجتهدت في " تحويل " سطح الجدار ثنائي الابعاد الى كتل بابعاد ثلاثية ، محتفية باستيلاد تنويعات فريدة لخاصية الظل والضوء ، جاعلة منها ضربة التكوين والخاصية الاكثر اثارة وفنية فيه.

ومباني مجمع " جامعة المستنصرية " في بغداد (١٩٦٣-٦٦) حدث مهم في سيرورة العمارة العراقية، كما انه الحدث الاهم في مجمل منجز" قحطان عوني " المعماري. ولئن دعينا عمارة " مستشفى سلمان فائق " بكونها رائعة المعمار الخمسينية ، فان عمارة " مجمع المستنصرية " هي بحق تحفته التصميمة على الاطلاق. وليس من ثمة مبالغة، كما نعتقد، في هذا التوصيف. فالمجمع كحدث معماري، هو في الاقل من اوائل المجمعات التخطيطية الحديثة المصممة، كما انه الاول المصمم من قبل معمار عراقي . انه " الانسامبل " Ensemble الرابع وقتذاك، في تاريخ العراق المعماري الحديث، منذ ان اعدّ " جميس مولسون ولسون " (١٨٨٧-١٩٦٥) مجمع جامعة" آل البيت " في الاعظمية سنة (١٩٢٢ - ٢٤)، ولحين اعداد " فالتر غروبيوس " مخططه لجامعة بغداد (١٩٥٧- ٦٠) في الجادرية، ومرورا بمجمع مباني " السفارة الامريكية " (١٩٥٥- ٦٠) في كرادة مريم للمعمار خوسيه لويس سيرت.

تستقي، اذن، عمارة الجامعة المستنصرية اهميتها وفرادتها بكونها مجمعا لمبانٍ وليس مبنى واحداً. وهذا الجانب اتاح للمعمار امكانية منح كل مبنى من مباني المجمع لغته التصميمية الخاصة به والمعبرة عنه، من دون ان ينسى بانه يتعاطى مع استحقاقات مناخ معماري محدد تفرضه فكرة المجمع الواحد ؛ كاشفا بذلك مقدرته المهنية في ايجاد حل مقنع للمعضلة التصميمية التي تصدى لها. يعتمد مخطط الجامعة على وجود " شارع " رئيس، هو بمثابة العمود الفقري للمخطط. ومنه تتفرع " اذرع " تصل الى اقسام الجامعة المختلفة. ثمة فصل واضح بين القسم التعليمي المخصص للقاعات الدراسية وبقية الابنية الساندة مثل المكتبة والمبنى الاداري ومطعم الطلبة والمختبرات العلمية الذي وقعت منفصلة الواحدة عن الاخرى ضمن موقع الجامعة، لكنها متصلة فيما بينها ومرتبطة مع ذلك الشارع الرئيس. يتوق المعمارعبر آليات " التناص " الى استدعاء مخطط " المدرسة المستنصرية " (١٢٢٧-١٢٣٣) العباسية القديمة (والتي سميت الجامعة باسمها) ، بغية تشكيل تكوينات القسم التعليمي التي جاءت فورماته على شكل " فناء " مكشوف، يحيط به شريط كتلوي تحتله فضاءات قاعات التدريس يذكرنا وجوده بعنصر" حوش " المدرسة البغدادية. وحتى لا يعطي المصمم انطباعا بانه يقوم " باستنساخ " الحل التصميمي لذلك الحوش، شرع الى شطره من وسطه، قاطعا استمرارية شريط كتل الاقسام التدريسية في ازاحة متقصدة، ما افضى الى معالجة تكوينية فريدة اتسمت بحضور رمزي لعنصر الحوش، الذي يشي الى انتمائية خاصة للمكان ، في الوقت الذي امتلكت الكتل المصممة بسبب تلك الازاحة شكلا حداثيا معبرا. ولن يقتصر تأثير المعالجة التحديثية على المستوى الافقي، وانما شمل ايضا المستوى العمودي، فجاء تشكيل صياغة الواجهات متكوناً من تكرارايقاع منتظم لقطع بنائية مرفوعة هي عبارة عن " شاشات "آجرية انطوت سطوحها على تجويفات ذات نقشات هندسية تراعي اشكالها ابعاد الطابوق المستخدم. كما يحمى وجود تلك الشاشات فتحات النوافذ الواسعة المزججة لقاعات الدرس الواقعة خلفها. ويمنح حضور هذه الشاشات الطابوقية ذات اللون الاصفر المطعم بالواح فيروزية مع التطليعات الخرسانية التي تبرز خارج سطوح تلك الشاشات، يمنح الواجهات قيمة جمالية عالية اكسبتها خصوصية تكوينية متفردة تميزها عن بقية واجهات المباني الاخرى، كما تؤشرفي الوقت عينه وظيفتها كقسم اساسي سهل التعرف عليه ضمن اقسام الجامعة الاخرى.

تبرز القاعة الرئيسية بالجامعة، باشكال سطوح جدرانها المائلة الانسيابية وكتلتها المتميزة المشغولة من الخرسانة والمكسية مناطق منها بالآجر، كمفردة اساسية ضمن النسيج التخطيطي لمكونات الجامعة . وقد تم اختيار مقياس معماري خاص بها ومناسب لها يبين اهمية وظيفتها كونها قاعة الجامعة الرئيسية ومكان انعقاد مؤتمراتها العلمية المتنوعة. وهي بالاضافة الى وظيفتها الجامعية فانها ايضا بمقدورها ان تخدم متطلبات احياء المدينة القريبة منها، مايجعل منها مؤسسة فاعلة في حياة المدينة الثقافية. يمثل الآجر مع الخرسانة المسلحة المادتين الاساسيتين الداخلتين في تركيب القوام الانشائي لمباني الجامعة. كما انهما المادتان الاساسيتان، ايضا، اللتان يتعاطى معهما المعمار لاضفاء الطابع الجمالي على اقسام مبانيه جميعاً. فمن خلال اشكال الاستخدامات المختلفة لهما وتنوع اساليب تمظهراتهما، يفاجئنا المعمار بالامكانات الهائلة الكامنة في هاتين المادتين اللتين بات استخدامهما في الممارسة البنائية المحلية امرا عاديا ومألوفا وحتى تقليديا. ثمة احساس مفعم بالاتساق والهارمونية يتبدى حاضرا بقوة في اللغة المعمارية لمجمع مباني الجامعة ؛ وهذا الاحساس ينشأ، في اعتقادنا، من اقتصار المعمارعلى استخدام تينك المادتين الانشائيتين: الخرسانة والآجر، وخصوصا الآجر –المادة المألوفة والشائعة والمحببة لدى بنائي العراق منذ قديم الزمان، والتي اعتبرت دوما المادة " الوطنية " لمنجز حضارات كثيرة شهدتها ارض مابين النهرين !.

لقد اظهرت عمارة الجامعة المستنصرية بوضوح عن امتلاك المعمار لناصية المعارف المهنية التي اهلته للتعاطي مع استحقاقات ظاهرة "المجمع المعماري " على درجة عالية من الكفاءة والابداع، فضلا عن ما ابانته تلك العمارة من مسعى لاضفاء فهم جديد ومضاف لعنصر " المقياس المعماري "، وانتشاله من تبعات القراءة القاصرة، وفك ارتباطه من الفهم الاحادي، الفهم الذي لا يخرج عن سياق الاستخدامات التقليدية والمتواضعة له. وهما حدثان معماريان مهمان ارتبطا بظهور مجمع الجامعة المستنصرية، واسسا لمفاهيم جديدة في الخطاب المعماري العراقي.

يغدو ان يكون النشاط التصميمي لمكتب قحطان عوني في الستينيات تعبيرا بليغاً لفعالية التجريب وتمثيلا لها، التجريب الذي مكنه من " التنزه " بحرية في فضاء " حديقة " الانتقالات الاسلوبية المتنوعة. والمتابع لعمارته ابان تلك الفترة يدهش لتنوع الرؤى واختلاف المقاربات التي ما انفكت تتوالى تظهرفي المشهد بدفق يبدو وكأنه لا يريد ان يتوقف. فمن مبنى " ناجي جواد الساعاتي " (١٩٦٢) بالسعدون ببغداد ذي الواجهة الشفافة بجدران ستائرية، التي تذكرنا باسلوب " ميس فان دير رو " العقلاني الى نقيضه مبنى " مصلحة الكهرباء الوطنية " (١٩٦٥) بالميدان، المبنى الانيق بمنظومته التناسبية الحاذقة، المتشح " بعباءة " من الواح خرسانية بيضاء تحيط به من جميع جهاته والتي تتخللها شقوق ضيقة طولية هي بمنزلة نوافذ تفصل بين قطع تلك الالواح ؛ الى مشروعه " دار ضيافة بغداد " (الذي لم ينفذ) ، لغته التصميمة التي تستحضر مناخات منجز " اوسكار نيماير " المعماري ومبانيه البرازيلية المشهورة ؛ الى " عمارة الجمهورية " بالشورجة مرجعيتها التصميمية التي تعود الى مناطق جغرافية وثقافية نائية، الى بناية المؤسسة العامة للتجارة (١٩٦٧) في كرادة مريم، عمارتها التي هي اقرب الى المعالجة النحتية منها الى الاسلوب "التكتوني " Tectonic المعتاد، مرورا بتصاميم سلسلة من "الدور " السكنية ذات الجذر المعماري المحلي، التي اعتبر شخصيا، تصاميمها ظاهرة مميزة وقيمة في الممارسة المعمارية المحلية والاقليمية على السواء.

لكن ما يسم عمارة قحطان عوني ليس هذا فقط، ليس تنوع الاساليب التكوينية، وانما،ايضاً، شيئا اخراً ؛ شئ متعلق بقرار " خروج " عمارته من بغداد باتجاه مدن الضواحي، لتزرع هناك عمارة الحداثة وتنشر " نكهتها " العبقة غير المألوفة في تلك البيئات المبنية البعيدة. واذ اشير الى اهمية هذه الناحية، فانني اذكر بان معظم النشاط المعماري لغالبية المعماريين العراقيين كانت تستحوذ عليه مدينة بغداد، " بتواطئ " غير معلن من ان المبنى المشيد في العاصمة يمتلك بريقا لا يتوفر لمثيله في مناطق الضواحي النائية. وايا يكن الامر، فاننا ازاء نشاط مميز ومتنوع اتصف به مكتب قحطان عوني لجهة اهتمامه في توسيع " جغرافية " عمارة الحداثة بالعراق وتوطين نماذجها في مناطق مختلفة من البلاد. وتدلل تصاميمه المنفذة وغير المنفذة هناك على مسعى المعمار الجدي في تكريس هذه النزعة التصميمة في الممارسة المعمارية المحلية، ما اكسب تصاميمه غنى مضافاً متأتياً من " التغذية الاسترجاعية " Feedback التي تتيحها خصوصية المواقع المميزة التي يصمم لها المعمار. ولنتذكر " عمارة مبنى بلدية النجف " بكتلته المعبرة ومشروع مبنى " المغتسل " في نفس المدينة الحافلة عمارته برموزالمكان، وكذلك مبنى دائرة الادارة المحلية في الكوت، وكازينو كربلاء وروضة في البصرة وبهو البلدية في الناصرية والفندق السياحي بالصويرة ومثله في الكوت، وغيرها من الابنية العديدة التي اغنت البيئة المبنية المحلية وباتت عمارتها نماذج مبنية قابلة للاحتذاء والتعلم والمحاكاة. لقد اتسمت مقاربة عمارة جميع تلك المباني على صفة مشتركة هي صفة الحداثة، المعبر عنها باستخدام المواد والاساليب الانشائية الجديدة وبتوظيف تكوينات معمارية مستقاة من افكارطليعية وتطبيقات معمارية جادة . لكن عمارة مبنى ثانوية البنات في الصويرة (١٩٦٢) تظل الحدث المميز في مجمل خطاب "عمارة الضواحي " لقحطان عوني نظرا لعمارتها الفريدة التي تغوي بقراءة نقدية، قراءة خاصة على مايسمى " بالنقد التناصي "، فضلا على متابعتي الشخصية ومعايشتي البصرية الدائمة لها (كوني احد سكنة المنطقة) ؛ وكذلك للدلالات المتعددة المقترنة بذلك المبنى الحصيف. فالمبنى اولاً مشيد على ارض تعود ملكيتها الى عائلة الشهيد عبد الكريم قاسم، احد مؤسسي الجمهورية العراقية واول رئيس وزراء فيها، هو الذي اهدى الارض اياها لاغراض البناء، وهي حادثة نادرة في تاريخ العراق، وقد كانت الاولى من نوعها وربما ستظل الاخيرة، اذ لم نسمع بان حاكما عراقيا " وهب " املاكه للصالح العام . ما شاهدناه، وما قرأناه، ونسمع به دوما هو " نهب " الحكام للاملاك العامة ؛ وهي على كل حال حادثة غاصة " بسيميوطيقيتها " (بلغة اشقائنا المغاربة). والدلالة الاخرى هو ان يكون المشروع المقترح: " مدرسة " و مدرسة الى " البنات " تحديداً ؛ في وقت يروج الان وعلى نطاق واسع من قبل ممثلي الاسلام السياسي الظلامي بوجوب غلق هذه المؤسسات التعليمية وخصوصا المخصصة منها الى " البنات " ! وتبقى الدلالة الثالثة التي تميزت بها " ثانوية الصويرة " ذات مغزى مباشر بكون عمارتها تجسد قيم الحداثة المعمارية في ارض بكر لا تزال " تعتاش " معماريا على اساليب وقيم وتقاليد بنائية قديمة تعود الى زمن ماقبل "سايكس –بيكو "، بوقت طويل... وطويل جدا !!.

مبنى شركة النفط الوطنية في بغداد

يتوق معمار " ثانوية الصويرة " ان يكون مبناه نتيجة اعادة قراءة مبادئ العمارة الحديثة الخمسة التي حددها " لو كوربوزيه " يوما ما ؛ لكن تلك القراءة تظل مسكونة بالنفس والمزاج المحليين، او في الاصح النفس والمزاج " القحطاني ". ثمة رفع جزئي للكتلة، وثمة نوافذ شريطية، فضلا عن حضور المخطط الحر، وهناك جدران ستائرية، ما اتاح الى تكوين واجهة حرة، ناهيك عن وجود مفردة السقف الافقي. ثمة وفرة كذلك في استخدام المواد الجديدة، الى جنب اساليب تركيبية حديثة. لكن الاساس في عمارة المدرسة هو نزعة التصادي او بالاحرى التناص مع محاولات معمارية تجد اصولها في تطبيقات منجز عمارة الحداثة العالمي، لجهة تمكين المعمار ومساعدته في اصطفاء مفردات الحل التكويني لعمارة المدرسة. ويبهرني في هذا المجال استذكار مصمم المدرسة لواجهة المبنى السكني عند " بولفار نوفينسكي " في موسكو (١٩٣٠)، الذي عده " لوكوربوزيه " وقتها المنجز الحقيقي لعمارة الحداثة، واحد كشوفاتها المتميزة . لا اعلم هل ان مصمم المدرسة سعى الى تفعيل اجراءته التناصية مع هذا المبنى تحديدا، ام مع " النسخ " المحاكية لواجهاته،التي قد تكون تأثر بها معماريون كثر ؛ لكني ارى ثمة تشابهاً كبيرا في اسلوب تنطيق الواجهة الغربية لثانوية الصويرة ونوعية المفردات التكوينية للمبنى الموسكوفي. ويعيد المعمار هنا ذات الممارسة الايحائية التي رصدنا من قبل تطبيقاتها بالاشارة الى تماثل تشكيلات الجدار الطابوقي ذي الاسطح الكتلوية بالجامعة المستنصرية مع تقصيات المعمار الالماني المعروف " بيتر بيهرنس " P.Behrens (١٨٦٨-١٩٤٠) في مبناه " الادارة التقنية لشركة هوكست " (١٩٢٠-٢٤) في فرانكفورت بالمانيا. وقد تذكرنا ايضا طريقة ونوعية توقيع الكتلة الحجرية فوق مدخل ثانوية الصويرة الى ذات الطريقة التي استخدمها " لوكوربوزيه " نفسه في مبناه الشهير " الجناح السويسري " في المجمع الجامعي بباريس (١٩٣٢).

وايا يكن، فان القراءة التناصية لعمارة ثانوية الصويرة المترعة بالمرجعيات المختلفة تجعل منها حدثا تصميماً ذا اهمية استثنائية في دلالاته المتعددة، و التي ماانفكت تعتبر مفخرة تصميمية حقيقة لعموم الممارسة المعمارية المحلية،التي لم يتسن لمتابعيها الاطلاع الواسع عن منجزاتها الحقيقة.

واخيرا، فان منجز قحطان عوني المعماري المتنوع والمتعدد، ذو المواقع المختلفة يظل يشكل علامة مضيئة في الخطاب المعماري العراقي، علامة لها خصوصيتها ولها اضافاتها. كما تعتبر مقاربته المتأسسة عن اجراءات التأويل، وتبعات القراءة الثانية لمنجز عمارة الحداثة العالمي وتطويعها ضمن مفهوم خاص للمكان الذي يصمم له، بمثابة الاضافة المميزة والمهمة للمعمار.

لقد انجز قحطان عوني سلسلة تصاميم تجاوز بها مرجعيات الممارسة المعمارية المحلية السائدة ، بل واشهر، بغير وجل مع معماريين آخرين محدثين، قناعات تدعو صراحة بلزوم اجراء قطيعة معرفية ومهنية مع سياق الممارسات الماضوية والعمل على تفكيك قيمها بطرح مقاربة جديدة تنقض قيم تلك الممارسات بدلا من ايجاد " مساومات " تصميمية معها. لقد كانت عمارته من ذلك الصنف الذي يختزل زمناً للقفز الى زمن آخر. واذ نستعيد قيمة واهمية منجزه المعماري الان، بمناسبة ثمانينيته (التي نعترف بتأخرنا الاحتفاء بمناسبتها في موعدها، لانشغالاتنا البحثية، ولكن من دون ان ننساها)، فاننا نستحضر، ايضا، اسماء فريق العمل الجماعي الذي شارك معه في انتاج تصاميم المكتب. ان ذكر اسمائهم (وانا اتكلم عن المعماريين حصرا)، سيكون بمثابة ايماءة احترام وتقدير لذلك المعطى التصميمي الذي ما فتئ يحفز كثر من المعماريين العراقيين ويثير لديهم هاجس الرغبة في ترسيخ قيم الحداثة في الممارسة المحلية. انهم (المرحوم) عدنان زكي امين وعبد الستار عياش واحمد شهاب وصلاح الاحمدي وتوفيق بدر وجورج انطون جورج وهاكوب كوركين وجابوتينسكي المعمار البولندي. ليس لدي علم عن مكان اقامتهم الان، وماهي مصائرهم، وماذا " فعلت " الحياة بهم ؛ لكن دورهم مؤكدا سيبقى مهماً ومقدرا، كما هي مساهمتهم المؤثرة مع قحطان في ابداع وانجاز عمارة مميزة، جميلة ومفرحة،مفعمة بالالوان والنظارة، والمهم انهم جميعا منحوا المكان تجديداً وتنويعاً معماريين باستنباطهم وايجادهم الطريق و... الطريقة ؛ الطريق غير المعروف وغير المطروق معمارياً في البيئة المبنية المحلية، والطريقة الخاصة التي اهتمت في تأويل المنجز الحداثي المعماري العالمي . ؟؟

مستشفى سلمان فائق في بغداد

الجامعة المستنصرية في بغداد

*مدرسة العمارة / الاكاديمية الملكية الدنيماركية للفنون

غيوم ورقية

عبود الجابري

١
نرسم الغيوم
ونحلم بهطول النُقَط
المرسومة تحتها

٢
الغيمة التي ظللت بها إسمك
حلّقت في سماءِ الآخرين

٣
الغيمةُ....
زفرةُ بحرٍ مصابٍ بالحمّى

٤
وحدةُ الألم

نتمنى أن يكون غيمةً عابرة

٥
الغيوم.....؟
لو أنها لم تحجب الشمس !

٦
غيمةٌ سوداء واحدة
تكفي لإطفاء القمر

٧
غيمةٌ غاضبة.....
أمطرتنا بوابلٍ.... من الرصاص

٨
غيمتان ساهرتان
تتجاذبان أطراف المطر

٩
لا تمطر الغيوم
على من ينظر إليها دائماً

١٠
حتّى الغيمة الوحيدة
تنجبُ مطراً صالحاً

١١
ما الذي سنراه
لو صارت الغيوم مرايا.....؟

١٢
عندما تغيُم الوجوه
لماذا تمطر العيون.....؟

١٣
حينَ أقفرتْ حياتُهُ
أوقدتْ له غيمةٌ..

١٤
تَرفٌ موجعٌ.....
أن تمطر الغيمة في البحر

١٥

الغيومُ مواعيد
والمطر لقاءات حميمة

١٦
الغيمة التي أودعناها سماءَ العراق
تزلّ أقدامها....
كلما حاولت أن تمطر النخيل

١٧
كعادتهم دائماً....
يشبعوننا غيوماً

١٨
هل المطرُ
دم الغيمةِ الجريحة.....؟

١٩
وماذا لو لم يلتئم جرحها....؟

٢٠
هل كانت
ستمطر حتى الموت.....؟